كارثة العالم العربي
وأسبابها الحقيقية

بقلم

سماحة الاستاذ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوى

رابطة العالم الأسلامى

الأمانة العامة ـ مكة المكرمة

كارثة العالم العربي
وأسبابها الحقيقية

بقلم

سماحة الاستاذ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوى

رابطة العالم الاسلامى

الأمانة العامة ـ مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يسر الأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، أن تقدم للمسلمين في أنحاء العالم ، نص البحث القيم الذي كتبه سماحة الاستاذ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، ونشره المجمع الاسلامي العلمي بدار العلوم لندوة العلماء ـ لكنو ـ بالهند • بعد أن عملت الرابطة على نشره في صحفها ، وفي غيرها من الصحف الاسلامية ، نظرا لأهميته وقيمته •

والله ولي التوفيق •

ربيع الثاني ١٣٨٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

أصبح المسلمون في ٢٩ من صفر ١٣٨٧ من الهجرة (٩ من يونيه ١٩٦٧ م) فى كل بقعة من بقاع الارض التى يسكنونها ، لا يرفعون رؤوسهم حياءا ولا يواجهون مواطنيهم وجيرانهم فى الشوارع والطرقات ، والمحافل ذلة ومهانة ، قد خنقتهم العبرات فهم يغالبونها ، فقد جثمت اسرائيل على مراكز هامة استراتيجية من بلادهم العربية المقدسة ، واستولت على مدن من أرضهم ، وادهى من كل ذلك وأمر ، ان اليهود قد استولوا على القبلة الاولى ، وثالث الحرمين الشريفين ، والمسجد الاقصى المبارك الذى كان منه الاسراء ، وكان ذلك لاول مرة في ألفى سنة باعتراف ربيهم الاكبر ، وكان أول يوم لم يصل فيه المسلمون الجمعة في المسجد الاقصى في ثمانية قرون بعدما استعاده صلاح الدين الايوبى من الصليبيين وقد بقى في حكمهم تسعين سنة فقط • لم يهنأ للمسلمين عيش في هذه المدة ، ولم يطب لهم طعام وشراب ، حتى استردوه الى الولاية الاسلامية العادلة ، ووصايته الرحيمة السمحة ، فكانت هذه الجمعة (٢٩ صفر ١٣٨٧ هـ) والجمعة ـ مباركة في التقويم الاسلامي ـ

يوما مشئوما لم يعرف المسلمون في انحاء العالم يوما أشأم منه منذ قرون ، ففى كل عين دمعة ، وفي كل صوت حزن وشجى، وفي كل بيت حداد ومأتم ، **وفي كل مجلس عزاء ورثاء** •

هذا وقد كانت النفوس الجريحة يساورها أمل فى بقاء الصراع والكفاح ، وطول الحرب ، فقد تنبأ الخبراء الاجانب ، وأهل البصر بالموقع الجغرافي ، ان الحرب اذا طالت اياما ، وثبت العرب فى المعركة فانها ستنهك قوى اليهود ، وتلجئها الى أن تضع السلاح ، وكانت الدول العربية القريبة والبعيدة ، تضم قواتها الى الحكومات التى كانت قد حملت مسئولية الحرب ، والامل تعلة كل جريح ومريض ، فكان بصيصا من نور وبريقا من حياة يجسمه التفاؤل ، وقد انقطع هذا الخيط الضعيف وخمد هذا المصباح الضئيل ، فقد قبلت « الجمهورية العربية المتحدة » زعيمة المعركة وممثلة العرب وقف اطلاق النار من غير شرط ، ووقعت الهدنة ، ووقع كل ذلك في سرعة أسطورية ، وبراعة تمثيلية ، ووقف العالم الاسلامى ذاهلا مشدوها ، مكتوف اليد ، مسلوب الارادة ، فان أصحاب القضية الذين كانوا في المعركة ، والذين حملوا رايتها ، وتولوا كبرها ، قد قبلوا الصلح •

وأصبح المسلمون من غد ، لهم وجوه غير وجوههم

بالامس ، وأصبح مواطنوهم الشامتون وزملاؤهم في المكـــاتب والمصانع يتنادرون عليهم وعلى الحكومات العربية ، وعلى اخوانهم في الدين ، فمنهم من يقول : « لقد استسمنا ذا ورم » ، ومنهم من يقول : «كنا نسمع من سنين جعجعة ولم نر طحنا » ، ومنهم العامى اللاذع الذى يقول : « تمخض الجبـــل فولد فـــأرا » والمسلمون يسمعون كل هذا في خجل وحياء ، والعهد بهم أنهم يقرعون الحجة بالحجة ، ويقابلون الريح بالاعصـــار ، وهم أصحاب بديهة وعارضة ، ولكن يخونهم الذكاء ، وذلاقة اللسان في هذا الموقف ، ففيه ضعف وعجز ، فينشد الواحد منهم بلسان الشاعر العربى القديم ـ عمرو بن معدى كرب :

فلو ان قومى أنطقتنى رماحهم　　نطقت ولكن الرمـاح اجرت

ولم تكن القضية قضية شخصية، يسقط فيها قائد، ويخفق فيها زعيم ، فما أهون هذه القضية ، وما أكثر امثالها فى تاريخ الامم والحكومات وفي تاريخ الامة الاسلامية نفسهـــا ، ولكن اقترنت بهذه القضية قضية الحكومات العربية ، وتلوث بهـــذا الاخفاق الذريع • اسم العرب ، الذى كان يملأ القلوب مهـابة ورعبا في ديار العجم ، والذى ارتبط به تاريخ مجيد مشرق من أروع التواريخ الانسانية ، كان المسلمون فى جميع انحاء العالم يستمدون منه الايمان والحماس ، ويعتمد عليه المصـــلحون

والمجددون ، والخطباء والمؤلفون ، والادباء والمنشئون في كل جيل وعصر ، في اثارة الشعور ، وايقاد جمرات القلوب أكبر اعتماد ، فقد أساءت هذه النهاية المخزية الى كرامة هذا التاريخ، والى منبع هذا الحماس اساءة كبيرة ، وخلقت مشكلة طريفة لهؤلاء الدعاة والعاملين ، سينتظرون اياما طويلة لاندمال هذا الجرح وزوال هذا الانطباع .

ويحار العقل في تعليل هذه الهزيمة المنكرة وأسبابها ، اذا استعرض الموقع الجغرافي ، وقارن بين ما يملكه العرب من وسائل وقوات .. ورأى التفاوت العظيم المدهش في عدد النفوس ووصول الامداد والنجدة ، فاذا فكر في ذلك ، رجع الفكر خائبا وهو حسير ، ولم ير لذلك مثيلا في تاريخ الامة الاسلامية ، الا حين هجم التتار — وهم الجراد المنتشر والسيل المنهمر — على الامبراطورية الاسلامية الكبرى ، وقذف الله الرعب في قلوب المسلمين ، وسلط هؤلاء الوحوش عليهم ، يحصدونهم حصدا كالحقول ، ويسوقونهم سوقا كالقطعان من الغنم والضأن ، ولا يمكن تعليل كل ذلك مهما دققنا في النقد والتحليل ، الا بكلمة جامعة قرآنية معجزة ، هي «الخذلان» وهو قوله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل

المؤمنون » (١)

ولماذا كان هذا الخذلان بعد ما واكبهم النصر والتأييد الالهى ، ومشى في ركابهم الفتح في رحلتهم الطويلة ، وظهرت المعجزات ، ونزلت جنود السماء ، حتى اعتقد المسلمون ـ وفي مقدمتهم وعلى رأسهم العرب ـ ان النصر حليفهم في كل معركة، وقضية فلسطين والمسجد الاقصى ، هى قضية حق وعدل ، وعقل ومنطق ، تستحق كل نصر وتأييد من الارض والسماء ، ودولة اسرائيل قامت على الظلم والجريمة ، والاغتصاب والمكابرة ، واليهود هم أذل خلق الله ، وأكثرهم جبنا وخنوعا ، وسكان هذه الدولة الوليدة خليط من البشر ، شذاذ أفاقون ، أحاطت بهم الدول العربية احاطة السوار بالمعصم ، والقلادة بالجيد ، فهى جزيرة في بحر واسع هائج ، وقد قال الله تعالى : « ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله »(٢) واليك الحقيقة المؤلمة الثقيلة •

لقد كان العرب الامة المختارة لحمل الرسالة الاسلامية الاولى ، ونشرها في الآفاق وحراستها والحدب عليها • الى أن يرث الله الارض ومن عليها ، وقد ربط الله مصيرهم بمصير الاسلام ، وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، وقرن بينهما

(١) سورة آل عمران
(٢) سورة البقرة

قرانا لا يقطعه شيء ، وقد أشعل قلوبهم حماسا في سبيل نشر تعاليم الاسلام ، ودعوة الامم اليها ، وانقاذها من براثن الجاهلية، وقد كانت لأخلاقهم ومواهبهم التى خصوا بها من بين الأمم ، والتي غذاها ونماها الاسلام ووجهها التوجيه الصحيح فضـــل كبير في انتصارهم على عدوهم ، الذى كان يفوقهم عشـــرات المرات ، وفي تحطيمهم للامبراطوريتين العظيمتين ــ الروميـــة والايرانية ــ منها الايمان الراسخ، والوفاء للاسلام، والاستماتة في سبيله ، ومنها الايثار والانسلاخ عن الانانية الفردية ، ومنها العفة والزهد ، والتقشف في الحياة ، والصبر وقوة الاحتمال ، ومنها الاعتماد على العمل والكفاح أكثر من الحديث والكلام ، و « الواقعية » بدل الاسترسال في الاوهام والاحلام •

وقد جد في العالم العربى في الدور الاخير حـــــوادث وتطورات ، قوضت دعائم هذه الحياة ، وأركان هذا الخلـــق العربى الاسلامى ، وخلقت من هذا العالم الذى عجنت طينتـه بالاسلام ، وحبه والوفاء له ، والتفانى في سبيله عالما جـديدا ، يختلف عن العالم القديم اختلافا جذريا ، وأهم هذه العوامـل التى غيرت اتجاهه ثلاثة عوامل بحسب الترتيب التاريخى •

العامل الاول : الحضارة الغربية ، والثروة الهائلة التي تدفقت عليه ، وقد أثرت هذه الحضارة وهذه الثروة في أخلاق

هذه الامة العسكرية بالطبيعة والتاريخ ، والمتقشفة الزاهدة ، بحكم الرسالة والوراثة ، تأثيرا عميقا ، قلبها رأسا على عقب ، فتفشت فيها روح التنعم والرقة ، والترف والاخلاد الى الراحة ، وفقدت روح الفروسية ، والفتوة العربية ، والنخوة ، والصبر على المكاره ، واحتمال المصائب ، والثبات فى معركة الحياة ، واستهان الناس بأحكام الله وفرائضه ، وتجرأوا على المحارم ، ووقعوا في حمى الله ، وأخل العلماء بواجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتركوا الحسبة على الناس، وكلمة حق عند سلطان جائر ، وانتشرت المجلات والصحف الماجنة الخليعة تنشر المجون والخلاعة ، وتبذر بذور الفساد والالحاد ، وتحب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، واكتسحت المجتمع موجة من التمتع باللذات ، وانتهاب المسرات ، وترفيه النفس وتسليتها على حساب الاخلاق والضمائر، وعلى حساب الشرائع والديانات حتى أصبح بعض من يعرف قانون المجازاة الالهى ، ويعرف تاريخ الامم السابقة البائدة ، يرفع بصره الى السماء ، خشية ان تنزل عقوبة او يحل بلاء (١)، ويتلو قوله تعالى : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون (٢) »

---

(١) حدثنى بعض علماء مصر وأهل الغيرة بذلك عن انفسهم

(٢) سورة الأعراف

والعامل الثاني : هي ظهور « القومية العربية » التي كان لها أعمق تأثير في حياة الامة العربية وعواطفها ومشاعرها بعد الحرب العالمية الاولى ، فقد قويت هذه العصبية على حساب العصبية الاسلامية ، وأصبحت ديانة وعقيدة يتغنى بها القوميون، ويتحمسون لهما كما يتحمس أهل الديانات والملل لدياناتهم وشرائعهم ويرون فيها عوضا وخلفا عن الدين الاسلامى الذى أكرمهم الله بالايمان به ، والانتصار له ، والتفانى في سبيله - يتمثل ذلك بعض التمثيل - في عبارات التقطناها على عجل من كتاباب بعض كبار كتاب العرب ، وهى تقدم أسلوب الفكر الحديث المسيطر على دعاة القومية العربية :

« العروبة نفسها دين عندنا نحن « القوميين العرب » المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين ، لانها وجدت قبل الاسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها - أى العروبة - الى أسمى ما في الاديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات » (١)

« لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة ان القومية العربية لهى نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربى »

ورسالة هذه النبوة هى تجميع القوة ، وتكتيل الجبهة ،

---

(١) مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب « قضية العرب » لعلى ناصر الدين هامش ص ١٣٨

والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربى نحو كسب الحيـــاة •

وان كتاب العرب في أعنـــاقهم أمـــانة ، هى أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة ، يزكونها بأقلامهم وينفخون فيها من أرواحهم ، ويعملون عـــلى أن تتكتل لهـــا أسباب النماء والازدهار » (١) •

« الوحدة العربية يجب ان تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين » (٢) •

« (القضية العربية) لن تكون أبدا عنـــد العربى المؤمن الحر العاقل الشريف ، الصالح الخير ، الابى المترفع ، الا قضية ايمان ، ايمان بالوطن للوطن كقضيـــة الايمان بالله لله ليس غـير » (٣) •

وقد نشأ بذلك عقوق بنعمة الاســـلام ، وكنود وكفران بحق محمد عليه الصلاة والسلام ، وفضله في تكوين هذا العالم العربى وابرازه من العدم الى الوجود ، وبدرت من أفواه كثير من الشباب المتعلم ، وبعض قادة الفكر وحملة الاقلام كلمات وكتابات ، يرتد بها صاحبها عن الاسلام ، ولا يستحق أن يدفن

---

(١) مقال للاستاذ محمود تيمور فيمجلة العـالم العـــربى ، عدد ١٧ ، بعنوان « النثر والقومية العربية »

(٢) مجلة العربى ، العدد الثانى ،ص ٩ ، يناير ١٩٥٩ م•

(٣) مقدمة الطبعة الثانية ص ١٩

في مقابر المسلمين • وصدرت مقالات في صحف ومجـــلات حكومية يبرز فيها أصحابها كعدو حقود ثائر على الاسلام وجميع الاديـان ، وبدأ بعض الكتـاب يتحـدثون عـن « الانســان العربى الجديد » كعملاق مارد على جميع الاديان السماويـة ، والاسس العقائديه وجميع القيم الخلقية والروحية ، وقد عبـر عن هذه الفكرة كاتب جرىء يمثل فى مقـــال لـه في مجـــلة عسكرية حكومية ، عددا كبيرا من الضباط والقادة ، والمفكرين الذين يفكرون هذا التفكير ، يقول صاحب هذا المقال :

« استنجدت أمة العرب بالاله •• فنشت عن القيم القديمة في الاسلام والمسيحية ، استعانت بالنظام الاقطـاعى والرأسمالى وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كل ذلك لم يجد فتيلا •• مع كل هذا شمرت أمة العرب عن ساعديها ونظرت بعيدا •• بعيدا •• لترى طفلها الوليد ، يقترب منها شيئا فشيئا •• وهذا الوليد ليس الا الانسان العربى ، الاشتراكى الجديد •

الانسان المتمرد على جميع القيم المريضـــة الهزيلة في مجتمعه •• التى هى ليست الا وليدة الاقطاع والرأســمال والاستعمار •• تلك القيم التى جعلت من الانسان العربى انسانا متخاذلا متواكلا ، انسانا جبريا ، مستسلما للقــدر ، انسانا لا يعرف الا أن يقول : « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم »•

أما القيم الجديدة التي ستخلق الانسان العربى الجديد ، فهي قيم نابعة من صلب الانسان المتمرد المعذب ، نابعة من قلب الانسان الجائع ، نابعة من الانسان الاشتراكى الثورى الجديد .. الذى لا يؤمن الا بالانسان وبالانسان وحده .

والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربى هى خلق الانسان الاشتراكى العربى الجديد الذى يؤمن أن الله والاديان ، والاقطاع ، والرأسمال ، والاستعمار ، والمتخمين وكل القيم التى سادت المجتمع السابق ليست الا دمى محنطة في متاحف التاريخ

ونحن اذ نشترط في انساننا الجديد رفضه للقيم السابقة علينا أن نضع قيما جديدة محدودة ليست هناك سوى قيمة واحدة ، وهى الايمان المطلق بالانسان القدرى الجديد ، الانسان الذى لا يعتمد الا على نفسه وعمله وما يقدمه للبشرية جمعاء ، لانه يعلم نهايته الحتمية .. الموت .. وليس غير الموت ، لن يكون هناك نعيم أو جحيم ، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الارض ، لذلك هو مضطر الى ان يقدم كل ما يملك لامته ولانسانيته دونما مقابل (كزاوية صغيرة في الجنة مثلا) (١)

---

(١) من مقال للمرشح ابراهيم خلاص فى مجلة « جيش الشعب السورية »

وقد خامرت جميع الشعوب العربية نشوة هذه القومية في قليل أو كثير ، وجند لها زعماؤها وقادة الادب والفكر والسياسة جميع مواهبهم وقواهم وجميع وسائل الحكومة وكل ذلك يثير سخط الله وغضبه ، ويقطع عن أصحابها نصرته وتأييده ، وقد زخر القرآن بالوعيد والوبال على من يجحد النعمة ، ويكفر بها : « واذ تأذن ربكم لان شكرتم لازيدنكم ولأن كفرتم ان عذابي لشديد » (١) ولا نعمة أعظم من نعمة الاسلام ، ولا ثروة أعز من ثروة الايمان ، وقد قال الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداءا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (٢) وقال : « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » (٣) .

والعامل الثالث : هو قيام الحكومات العسكرية الدكتاتورية في كل قطر عربي تقريبا ، وظهور ثورة عسكرية على اثر ثورة عسكرية في هذه البلاد ، وقد أفقدت هذه الثورات المشؤومة المتلاحقة المتوالية البلاد أفضل قادتها العسكريين وزعمائها

(١) سورة ابراهيم : ٧
(٢) سورة آل عمران : ١٠٣
(٣) سورة ابراهيم : ٢٨

السياسيين ، وأكثرهم حنكة وتجربة ، واكتواءا بالسياسة ومراسا بالحرب ، فكان عدد كبير من هؤلاء القادة وأركان الحرب ، والضباط المحنكين ، والزعماء الناضجين ضحية هذه الثورات وهذه الحكومات « الدكتاتورية » فيعدم كثير منهم ، ويجلى الباقون ، ويغادرون البلاد فرارا بدينهم أو شرفهم أو حياتهم ، وهكذا أصيبت هذه البلاد بفقر الرجال ، وأزمة القادة، ولم تبق فيها الا عصابات معدودة محدودة لحزب واحد واوجهة نظر خاص .

وكانت أكبر مهمة هذه الحكومات « الدكتاتورية » المقلدة للحكومات الشيوعية المتطرفة ، القضاء على كل عرق ينبض وعين ترف فتعقبتها تعقب محاكم التفتيش في القرون الوسطى ، وفرعون مصر لاطفال بني اسرائيل في زمن قبل التاريخ ، فأصبحت البلاد كلها شبه معسكر لا يوجد فيه الا زى واحد ونظام واحد ، أو كسجن كبير لا حرية فيه ولا تنوع ، وأصبحت الصحافة والاذاعة آلة ترديد الصوت الرسمي وتضخيمه ، وتعقبت الجماعات الدينية بصفة خاصة ، ولقيت القسط الاكبر من الاضطهاد والتعذيب ، والمطاردة والهوان ، حتى عدمت البلاد بطولها وعرضها قائلا يقول : « أصبت » و « أخطأت » و « أحسنت » و « أسأت » وأصبح الصوت

الوحيد الذى يسمع « أصبت وأحسنت » وعدمت البلاد بطولها وعرضها قائلا يقول لضابط صغير من الضباط ، ولحاكم عادى من الحكام ، بل لصحافي ومذيع ، أو كاتب وأديب ، « اتق الله في أمتك وبلادك » وعنيت هذه الحكومات بتجفيف منابع الايمان والحماسة الاسلامية ، أكثر مما عنيت بسد أبواب الفساد والالحاد ومعاقبة الخونة المجرمين ، والداعرين الحشاشين ، وكانت هذه الحكومات التى تزعم الديموقراطية أو الاشتراكية أفظع صور الحكومات الشخصية الجابرة المستبدة في الزمن القديم •

وكان أكثر شغف هذه الحكومات الدكتاتورية بالثرثرة الفارغة والخطب الرنانة ، والوعود الخلابة ، والتهديدات المجلجلة ، وكان اعتمادها على كثرة الكلام ، والدعاية والصحافة ، أكثر وأقوى من اعتمادها على الجنود المسلحة ، والآلات الحديثة ، والعتاد الحربى ، وروح الفروسية والبطولة وتجنيد الشعوب ، حتى أتخم بها السامعون ومجها وعافها المستمعون ، وسخر منها الاجانب والمنافسون ، وقالت اسرائيل في احدى اذاعاتها القريبة « استمروا يا زعماء العرب في خطبكم، واختلاق القصص والاساطير ، فاذا جد الجد وآن الاوان ، علمتم ما هى اسرائيل ؟ هذه ساعة العمل ، لا ساعة الكلام ، وان

الدعاوى الفارغة لا تقدم ولاتؤخر »

وكان مع الاسف « الجمهورية العربية المتحدة » من أبرع هذه الحكومات في صناعة الكلام ، فقد كانت صحافتها واذاعتها هى الجنود الحقيقية التى تعتمد عليها ، وتطاول بها ، ويخاف زعماء العرب ورؤساء الحكومات من تعرضها لهم ، ونهشها لاعراضهم وكراماتهم ، وقد كانت معركة كلامية حامية في هذه البلاد تتسابق فيها في المهاجاة ، والتراشق بالكلام ، والتنابز بالالقاب ، واختلاق التهم والقصص ، وكان للجمهورية العربية المتحدة الزعامة في هذا الميدان ، كما كانت لها الزعامة في كل ميدان من ميادين الادب والثقافة ، فقد اجتمع عندها من الكتاب المحترفين والصحافيين البارعين ، والمذيعين المتحذلقين الثرثارين ما لم يجتمع لاى حكومة شرقية فضلا عن حكومة عربية .

زد على ذلك كله اعتماد هذه الحكومات واعتماد زعيمتها على القوة الخارجية ، وعلى الاوضاع والظروف العالمية التى ساعدت « السيد الرئيس » في كسب معركة « القنال » وشقت له الطريق الى ذلك ، وقد اتخذهاعصا يتوكأ عليها في كل معركة .

في هذه الظروف والاجواء ، وبين هذه الاخلاق والاتجاهات قامت المعركة الحاسمة بين الحكومات العربية ، وهى مصابة بهذه العلل كلها وفي افلاس روحى وضعف خلقى ،

وأزمة في الرجال ، وفي العاطفة والحماسة والانسجام والوحدة، لا تزال تسمى هذه المعركة ـ الا في اللحظة الاخيرة ـ معركة العروبة و « المعركة المصيرية » وقد سمع الناس في الاذاعة رئيس وزراء في حكومة عربية كبيرة يفتتح حديثه والحرب قائمة على قدم وساق بقوله : « باسم العروبة الخالدة تحية العروبة لكل عربي حر وتجرد عن كلمة تمت الى الاسلام والدين والله والرسول بصلة ، والبلاد العربية لا تغشاها روح الانابة والخشوع ، والابتهال الى الله والالتجاء الى رحمته ونصرته ، والاطراح على عتبة عبوديته ، والتوكل عليه ، والتبرؤ من كل حول وطول الا اليه ، كما فعل أسلافهم الأولون ، وحث عليه القرآن حيث قال: «يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون • وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين ، ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورياء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط » (١)

وخرجت المواكب والمظاهرات في العواصم العربية تهتف : سنسحق الاستعمار الامريكى ، سنسحق الرجعية العربية ، ـ التى هى أبغض الاعداء اليها ـ فلم تثبت هذه الحكومات في المعركة ثلاثة أيام ، وطلبت وقف اطلاق النار من

---

(١) سورة الانفال : ٤٥ـ٤٦ـ٤٧

غير شرط ولا قيد ، وكان ما كان ، مما ذل به كل مسلم فضلا عن العرب ، في كل بقعة من بقاع الارض .

أما اسرائيل فلم تضيع ساعة ، بل دقيقة في تقوية مركزها وتجنيد سكانها ، والاخذ بالجد واللباب ، وتهيئة الوسائل والاسباب لكسب المعركة ، وغسل العار الذي لحقها في معركة « القنال » فلم نسمع بثورة عسكرية فيها ، ولا بقيام حكومة « دكتاتورية » تصادر جميع الحريات وتشل الحياة ، وتفلج الضمير ، وتحارب كل اصلاح ديني أو خلقي ، وتطارد كل جماعة تنادي بالتمسك بالتعاليم الدينية والاخلاق الفاضلة ، ولم نسمع طوال هذه المدة باعدام القادة الحربيين والضباط العسكريين والزعماء السياسيين واجلائهم وتشريدهم ، كما نسمع ذلك في كل فترة ومدة قصيرة عن العواصم العربية ، وركزت كل جهودها ووسائلها على محاربة العدو المحيط بها ، والانتصار عليه ، والدفاع عن « الوطن المقدس » ذلك كله في هدوء وصمت ، وفي حيطة وحذر ، ومن غير دعاية وتهريج وطعن في المنافسين ، واهدار كراماتهم ، وينسب أهلها نفوسهم ودولتهم وكفاحهم الى أنبياء الله وأحبائه وتنتسب الى موسى — حين ينتسب كثير من العرب في مصر الى فرعون — وتعتبر كفاحها « جهادا مقدسا » وحربا دينية ، وقد فوجيء كثير من

أصدقائنا حين رأوا العرب يتناسون الاسلام ، ويتغافلون عن العبادة والدعاء ، ويخرجون في غرور وخيلاء ، ورأوا ذلك في « التلفزيون » ورأوا اليهود بالعكس ، قد صاموا عن بكرة أبيهم يوم السبت ، وخرجوا يرفعون صحف التوراة بأيديهم ، ويدعون الله ويسألونه النصر والتأييد .

هنالك يقع ما يقصم ظهر كثير من المسلمين والمشاركين للعرب فى العقيدة ، وفى النسل والطين(١) المحبين لهم بكل قلوبهم وعقولهم ، الذين يعتقدون ان ذل المسلمين بذل العرب، وعز المسلمين بعز العرب ، وأنهم كنانة الاسلام ومأرز الايمان، وصعب على كثير منهم فهمه واحتماله ، ولكن الذى عرف سنة الله في خلقه ، ودرس القرآن دراسة عميقة مجردة ، وقرأ انكاره على اليهود الذين كانوا يعتقدون أن بينهم وبين الله نسبا ورحما ، ولهم عليه دالة وحق ، فهم لا يؤاخذون على التفريط، ولا يعاقبون على الاعمال والاخلاق ، فقال في صراحة ليست فوقها صراحة ، وفي بلاغة ليست فوقها بلاغة ، « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولله

---

(١) ومنهم كاتب هذه السطور وكثير من اصدقائه وذويه

ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير » (١)

وأعلن أن قانون الجزاء على الاعمال والاخلاق عام محيط ليست فيه مداهنة ولا محاباة ، وانه ليس هنالك عند الله ما يسمى المحسوبية في الحكومات والادارات ، فقال محذرا منذرا: « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجدله من دون الله وليا ولا نصيرا » (٢) وذكر ان السعى والجهاد ، لا تتخلف عنهما نتائجهما ، وانه لا يشترط فيهما مؤمن ولا كافر ، فقال : « وان ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى (٣) • وقال : « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا (٤) » ونفى عن نفسه الظلم وتطفيف الكيل ، وبخس الحق ، فقال : « وما ربك بظلام للعبيد (٥) » وقال : « ان الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون (٦) » •

وهدم القرآن عقيدة تمجيد النسل وتقديس السلالة ، والاستئثار ببيت خاص ، كما كانت شائعة عند اليهود والمجوس، وفي ايران والهند ، وأرسى قاعدة العمل والجزاء ، والسعى والكفاح ، وربط المسببات بالاسباب ، والنتائج بالاعمال في غالب

---

(١) سورة المائدة : ١٨
(٢) سورة النساء
(٣) سورة النجم
(٤) سورة الاسراء
(٥) سورة قاف
(٦) سورة يونس

الاحوال ، فقال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (١) » وعاقب على الظلم وسفك الدماء البريئة ، والعبث بالارواح ، في كل مكان وزمان ، وفي كل أمة وجيل ، وفي كل دين وشريعة، وعاقب على السفاهة والرعونة وتعطيل العقل والمنطق ، وتضييع الاسباب والعلل والاسترسال الى الاوهام والاحلام ، والجدل والكلام ، في كل بقعة من بقاع الارض وفي كل دور من أدوار التاريخ ، وذم الطاعة العمياء الرعناء لاى قائد مزهو بقوته ، ومغرور بنفسه ، لا يرجو معادا ولا يخشى حسابا ولا يرقب الا ولا ذمة ، ولا يعرف هوادة ولا رحمة فقال : « واتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد (٢) » وقال : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون (٣) » وقد اقترنت بهذه الاخلاق والصفات ، وبهذه المناهج من الحياة نقمة الله وسخطه بقطع النظر عن الاشخاص والذوات ، والافراد والجماعات ، والمذاهب والديانات ، فكان ما وقع ـ وياليته لم يقع ـ تصديقا للقرآن ، وبرهانا ساطعا على عدل الله ، وصدق الاسلام ، وصحة ما جاء به الرسول ، ونطق به الكتاب

---

(١) سورة الزال
(٢) سورة هود
(٣) سورة هود

والسنة ، « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (١) » •

أما بعد ! فالكارثة فادحة تقصم الظهر وتذيب المهجة ، وتحير العقل ، وتحطم الاعصاب ، وكل ما يقال عنها قليل وقاصر ، ولكن هذه الامة ظلت تحتمل النكبات ، وتمر بالكوارث ، كانت أولها وأعظمها وفاة نبيها وارتداد عامة العرب، وانحصار الاسلام والمسلمين ـ وجعلهم بل كلهم من العرب ـ في مدينة صغيرة ، وقرية أو قريتين من الجزيرة يموج حولهم بحر الكفر والعداء ، وتكتنفهم امبراطوريتان عظيمتان قد هاجتا عليهم ، وطمعتا فيهم ، فهو كما يقول عروة بن الزبير « كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقلتهم وكثرة عدوهم » والثانية تدفق الجيوش الصليبية والحكومات الاوروبية بأسرها وخيلها ورجلها على جزء صغير من المملكة الاسلامية ورميها للمسلمين عن قوس واحدة ، واستيلاؤها على القدس والمسجد الاقصى ، وكثير من المدن العربية الاسلامية ، وتحديها للاسلام ، وتهددها لمركزه ومرقد نبيه عليه الصلاة والسلام ، فهم فى مدهم الاول ، كالوتد الحريرى يغرز فى خشب نيء ناعم ، كما يقول « استيلى لين بول »

(١) سورة النساء

وثالثها زحف التتار الوحوش على العالم الاسلامى ، وتحطيمهم له من أقصاه الى أقصاه فكانوا يسرحون على جثثه وأشـــلائه من غير خوف أو احتشام ، وقد كان العالم الاسلامى مقبـــرة واسعة يهيمن عليها الموت ، ويسود عليها الصمت الرهيـب ، وقد قطع المتفائلون الاقوياء الرجاء في نهضتهم ، ويذكر هـــذا الحادث المؤرخون العرب ، فتنهمل عبراتهم ، وتتقطع أنفاسهم ويفضلون السكوت على الحديث ، والموت على الحياة ، ويذكره المؤرخ ابن الاثير الجزرى فيقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها ، فأنا أقدم اليه رجلا وأأخر أخرى فمن الذي يســـهل عليه أن يكتب نعـي الاسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فيا ليت أمى لم تلدنى ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » وكانت هذه الكوارث خليقة بالقضاء على أمة من أعظم الامم ، ولـكن الامة الاسلامية ـ وفي مقدمتها وعلى رأسها الشعوب العربية ـ خرجت من تحت الركام ، ومن تحت الانقاض حية جديدة ، قوية نشيطة ، ونفضت عنها غبار الموت ، وتراب القبر الـــذى تخيله أعداء الاسلام ، واستأنفت السير فى ايمان جديد ، وثقة مستأنفة ، ودم فائر ، وحماسة زائدة ، والتاريخ مستعد لاعـادة نفسه اذا طلب منه ذلك ، واختير له السبيل القويم والصـــراط

المستقيم .

ان هذه الكوارث الثلاث التى وقعت في عصور مختلفة وانتفاضة الامة الاسلامية بعدها ونهوض العرب ، يلتقى على نقطة واحدة ، وهى وجود قيادة مؤمنة ، راسخة العقيدة ، قوية الايمان بوعد الله ونصره وبصلاح الاسلام ، بالقوة الكامنة فيه، شديدة التمسك بتعاليم الاسلام وآدابه واخلاقه ، مجردة عن كل أنانية ، وعصبية جاهلية ، فكان على رأس الانتفاضة الاولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ورفقته ، وكان على رأس الانتفاضة الثانية صلاح الدين الايوبى وانصاره، وكان على رأس الانتفاضة الثالثة علماء ربانيون ، ووزراء صالحون أسلم على أيديهم التتار أفرادا وأمة ، وتحولوا حماة للاسلام وحملة لوائه في الشرق والغرب ، ويلتقى هؤلاء القادة على أنهم كلهم كانوا يدعون بدعوة الاسلام ويقاتلون بسيف محمد عليه الصلاة والسلام ، واستحقوا بذلك نصر الله وتأييده الخارق للعادة ، وظهرت المعجزة فقد قال الله : « أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون » (١) وقال : « وان جندنا لهم الغالبون » (٢)

يجب علينا ـ نحن معشر العرب والمسلمين ـ أن نستأنف السير من جديد فنعترف ـ بالشجاعة التى عرفت بها العرب في

(١) سورة المجادلة

(٢) سورة الصافات

التاريخ ـ ان الطريق الذى اخترناه لبناء كياننا الجديد ، واسترداد مركزنا فى العالم الجديد ، وفي كسب القوة والوحدة وفي انقاذ فلسطين ، كان طريقا عقيما منحرفا يحبط المساعى ويخيب الآمال ، وأنه لا يقترن بنصر الله وتأييده ، حين لا عز ولا كرامة ولا ظفر ولا انتصار الا بنصره وتأييده ، ونعترف بشجاعة أن الله ربط مصيرنا بالاسلام وبمحمد النبى الامى ، وبتأييد دينه « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (١) وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (٢) ونعترف بشجاعة أن دعوة القومية العربية ، قد أخفقت وافتضحت وأنها كانت « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءا حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » (٣) ونعترف بشجاعة أن الظلم مرتعه وخيم ، وان الطريق التى تسلكه الحكومات الدكتاتورية الشيوعية مبيد للبلاد ، مهلك للحرث والنسل ، وأنه لا يتفق مع الاسلام ولا مع الانسانية ، ولا مع الحرية الحقيقية ولا المساواة ولا الجمهورية وان الطاعة المطلقة العمياء لقائد أو أمير ، والخضوع له في خير وفي شر ، وفي طاعة وفي

(١) سورة الأعراف
(٢) سورة الزخرف
(٣) سورة النور

معصية ، وتسليطه على العقل والنفس تسليط الاصنام والآلهة وعدم محاسبته في تصرفاته يجر النار والدمار على العباد والبلاد، وأن نعترف بشجاعة بأن الثرثرة وكثرة الكلام والدعـــاوى الفارغة لا تفيد شيئا ، وان التفريط في الاستعداد ، وعدم مقابلة الحديد بالحديد والغفلة والاخطاء الصبيانية في ميدان الحرب جريمة لا تغتفر في عالم الاسباب •

ونعترف بشجاعة أن العرب في حاجة الى ايمان جـديد بالدين الخالد القديم ، والى حب يملأ جوانح النفس ، ويغمر العقل والقلب بعنوان مجدهم ، وسر شرفهم وكرامتهم ، ومنبع قوتهم وانتصـــارهم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب الهاشمى القرشي ، الذى لا يعز العرب ولا الاتراك ولا الهنود الا بالايمان برسالته الخالدة ، وتعاليمه الفاضلة وامامته الدائمة ، وقيادتـه الرشيدة ، ونعترف بشجاعة ان المسلمين والعرب لا تفيـــدهم قوة أجنبية ولا تخدمهم مصالح سياسية للاجانب تتقلـب مـــع الرياح ، وتخضع للمنافع والارباح ، فليتوكلوا على الله اولا ثم ليعتمدوا على سواعدهم وشجاعتهم وايمانهم ، واخـــــلاقهم وصفاتهم ثانيا •

ويجب أن نلتجيء الى الله أفرادا وأمة في ضراعة وابتهال ونتوب الى الله توبة اجتماعية نصوحا ونبرأ اليه من كل حـول

وطول ونؤمن بأنه لا ملجأ ولا منجى منه الا اليه • ولا نكون كالذين قال الله فيهم : « فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » (١) ولا كالذين قال فيهم : « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » (٢) بل نكون كالذين قال فيهم : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » (٣) وللتوبة الاجتماعية المخلصة تأثير غريب في تغيير المصير وقلب الاوضاع ، فقد حكى القرآن عن هود قوله : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » (٤) وحكى قول نوح : « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون الله وقارا » (٥) ولنصلح حياتنا وسيرتنا مع الله ومع عباده وفيما مكننا فيه ومتعنا به ، ولنترك المنازعة مع الله ، ومحادة رسوله ومعارضة شريعته وقانونه ، ولندخل في السلم كافة ، فلذلك

---

(١) سورة الأنعام
(٢) سورة المؤمنون
(٣) سورة البراءة
(٤) سورة هود
(٥) سورة نوح

تأثير سحري في الفوز بالسعادة ، والعز والكرامة ، والنجاة من الحكام الظالمين ، والاعداء القاهرين فقد قال تعالى : « وان لـو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءا غدقا » (١) وقال : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض » (٢) وهذا هو السلاح الذي أشار به موسى على قومه في مصر : « واوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين (٣) .

الا ان العالم العربى لم يغب له نجم الا وطلع له نجم آخر ، ولم يتوار بطل الا وبرز بطل آخر ، ولم يرض الله بذله وهوانه ، ففى ذله ذل المسلمين ، وفي هوانه شماتة الاعداء المتربصين ، فلينفض عنه الغبار وليستأنف السير ، وليعد الى مركزه ورسالته ، وصفاته الاولى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون» (٤) .

---

(١) سورة الجن
(٢) سورة الأعراف
(٣) سورة يونس
(٤) سورة آل عمران